

الصيد

قصة لغز دوهابسان

ترجمة فارس قويدر

وقد كانا - على ما يبدو - مفرطين في ضخامة الجسم ، بارزي العظام ، كثيفي الشعر ، قوين ، عنيفين .. وكان صغيرهما أطول قامة من كبيرهما . وله صوت جهوري تهتز لصرخته جميع اوراق الاشجار في الغابة .

ولا أبى واروع من منظر هذين الماردین العملاقين ، وقد اعتليا صهوة جواديهما المطهين يتشدان الصيد .

وفي منتصف شتاء سنة ١٧٦٤ اشتدت وطأة البرد وغسدت الغناب ضارية .. مفترسة . وراحت تهاجم كل من تأخر من الفلاحين في العودة الى منزله . وهي تحوم حول البيوت وتعوي من مفيب الشمس حتى طلوع الفجر ، وتفتك بالحيوانات في اسطبلاتها .

وسرعان ما انتشرت شائعة تقول : ان ذئبا ضخما ذا لسون رمادي قريب من الابيض قد أكل طفلين . والنهم ذراع امرأة . وخنق كلاب البادية جميعا . وراح يدنو دونما خوف من جدران المنازل يشم ما تحت ابوابها .. وقد أكد الكثيرون من سكان المنطقة انهم شعروا بانفاسه تحرك اللهب في مصابيحهم ، وسرى الرعب بين سكان المقاطعة جميعا ، فلم يتجاسر احد على مفادرة منزله ليلا ، وتراوى لهم ان ظلال المساء الحالكة تخفي في طياتها شبح هذا الوحش المخيف .

عند ذلك عزم الاخوان ديريفيل ان يبحثا عن هذا الذئب ليقتلاه . ودعوا كل سادة البلدة ان يصحباها لهذا الصيد العظيم . ولكن عبثا كانوا يبحثون عنه خلال الغابات والادغال ، وكسهم قتلوا ذئبا سواه ، دون ان يجدوا له اثرا .

وفي كل ليلة تلت نهار صيد كان الوحش يهاجم بعض المسافرين او يلتهم بعض الماشية بعيدا عن الاماكن التي يبحثون فيها عنه . وكأنه يريد الانتقام لنفسه منهم .

وانتهى به الامر ذات ليلة ان دخل حظيرة الخنازير في قصر ديريفيل وأكل أجود اثنين منها .. ففضب الاخوان أشد الفضب ، وفسرا هجومه جراءة واستخفافا ، ونوعا من الاساءة المقصودة .

وما لبثا ان اصطحبا كل ما عندهما من كلاب الصيد المدربة ، وخرجا يطاردان هذا الذئب بحماسة يشرها الحنق والفيظ والفضب، وراحا يقفشان خلال الغابات منذ شروق الشمس حتى مفيبها ، واختفاء شعاعها الوردی ، خلف الاشجار الكبيرة العارية . ولكن دون جدوى . وبينما هما عائدان مفضيين ، وقد ثبط الاخفاق من عزميتيهما ، يسلكان ممرا تظله الاحراش والادغال . يتملكهما العجب والدهشة من مراوغة هذا الذئب وافلاته منهما ، شعرا بخوف غامض يفشى قلوبيهما . قال اكبر الاخوين :

- « يبدو لي ان هذا الذئب ليس عاديا . ويمكن للمرء ان يقول بانه يفكر كالانسان تماما » . فاجابه الاصفر :

روى لنا هذه القصة اليركيز المعجوز ديريفيل بعد حفلة عشاء في بلدة « سانت اوبرت » بقصر البارون دي رافيلز . وكان الدعوون قد قنصوا وعلا ذلك النهار ، وكان اليركيز هو الوحيد من بين الضيوف الذي لم يشترك معهم في الطراد .. فما سبق ان خرج مرة للصيد . وفي خلال تلك المأدبة الفخمة نادرا ما كان الحضور يتحدثون عن شيء آخر الا الصيد ، وقتل الحيوانات ، حتى النساء انفسهن وجهن اهتمامهن الى تلك القصص الدامية التي غالبا ما كانت بعيدة الاحتمال والتصديق بينما كان المتحدثون يقلدون بشكل يبعث على الضحك والسخرية منظر الكر والفر بين الانسان والحيوان .. وهم يلوحون بأيديهم ، ويتكلمون باصوات كهزيم الرعد القاصف .

تحدث اليركيز ديريفيل طويلا ، بأسلوب أضفى عليه قليلا من التبجح والزهو والمباهاة ، ولكنه مليء بالتأثر والانفعال .. وقد سرد قصته هذه بسلاسة وسهولة تؤكد على الاغلب انه رواها مرات من قبل ، حتى لم يتمهل ليختار كلماته التي تعبر عن الصورة التي يريد التعبير عنها . قال اليركيز :

ايها السادة . انني لم امارس الصيد والقنص مطلقا . وكذلك ابي وجدتي وجد ابي ، الا ان هذا الاخير كان ابنا لرجل مارس الصيد والقنص اكثر منكم جميعا . وقد توفي سنة ١٧٦٤ وسأحكي لكم كيف مات .

كان اسمه جون . وكان متزوجا وابا لذلك الرجل الذي اصبح جدا لابي . وكان يسكن مع اخيه الاصفر فرانسيس ديريفيل في قصرنا وسط الغابة الموحشة في مقاطعة اللورين . وقد ظل فرانسيس اعزب لشدة ولعه بالصيد .

وقد كان الاخوان يباشران الصيد من اول العام السى آخره ، دونما انقطاع او كلل او ملل . فلقد كانا لا يحبان شيئا كالصيد . ولا يفهمان شيئا آخر كالصيد ، ولا يتحدثان الا عن الصيد . ولا يعيشان الا من اجل الصيد .

فقد استولت هذه الرياضة العنيفة على كل عاطفتيهما لا تلبث ، واستنفدت كل وقتيهما . لا يثنيهما عن استئناف الصيد عائق مطلقا . وقد قيل انه عندما ولد جد ابي كان ابوه جون يطارد ثعلبا . الامر الذي لم يعطله عن استئناف رياضته . وصاح في وجه من اذف اليه البشرى متنمرا :

- « يا له من شحاذ صغير .. اما كان يمكنه ان يتمهل حتى اصرع هذا الثعلب ؟ »

اما اخوه فرانسيس فكان اكثر ولعا بالصيد منه ، وكان اول الامور التي يبدأ بها اثر استيقاظه ان يتفقد كلابه وجياده ، ثم يرمي بعض الطيور التي يراها حول المكان حتى يحين موعد خروجه للصيد . حيث يمارس هوايته المفضلة .

سدوله على الكون .

وقد تسربت عدوى هياجه الى جواده فراح يمدو بقوة لا يدري
كنها ، وقد بسط عنقه امامه ، بينما كانت رأس الجثة الممددة على
السرغ ترتطم بجذوع الاشجار والاحجار فينتثر منها الدم ، ويعلق
العوسج بفره شعره فيقطعها تقطيعا .

وفجأة انطاق الذئب والفارس معا من الغابة ، واندفعا الى واد
صغير ، وقد بزغ القمر على الروابي والاكام . كان الوادي كثير الحجارة
مفلقا بالصخور من كل جانب ومن المستحيل ان يجد الذئب منفذا
يفلت منه . ولم يلبث ان وقف امام خصمه الذي ارسل من فرط
السرور والفرح والرغبة في الانتقام صيحة دوى لها في أرجاء الفضاء
صدى كهزيم الرعد القاصف . ثم ترجل عن جواده شاهرا سكينه .
كان الذئب ينتظره ، وهو منتصب الشعر ، مقوس الظهر ، وقد
انقدت عيناه كنجمتين ، متلاشتين . ولكن الفارس الشجاع حمل جثة
اخيه - قبل ان يبدأ العراك - ومددها على صخرة كبيرة ثم وسد
رأسه الذي لم يعد سوى خصلة من الدماء الى كومة من الحجارة
وصرخ فيه وكأنه يخاطب أصم بقوله :

- « انظر جون .. انظر هنا » .

ثم هجم على الوحش وقد شعر ان ما لديه من القوة تكفيه
لكي يفتت الحجارة بين يديه ، وبزبح الجبال عن مستقرها . ولقد هم
الذئب ان ينشب مخالفه في اعضائه الحيوية الحساسة الا ان فرانسيس
امسك بخنقه ودون ان يستعمل سلاحه ، اخذ يخنقه متمهلا ، وهو
يستمتع الى شوق انفاسه ، وخفقات قلبه تتوقف رويدا .. رويدا ..
وفرانسيس يضحك جذلا فرحا صائحا بما يشبه الهديان :

- « انظر جون .. انظر » .

وعندما تلاشت مقاومة الذئب ، وتراخى جسده ، وخر صريعا ..
اخذه فرانسيس والقاه عند قدمي اخيه الاكبر ، وراح يخاطبه
بصوت مؤثر :

- « انه هنا .. يا عزيزي جون .. انه هنا » .

ثم حمل الجثتين على السرج وقفل راجعا الى القصر ضاحكا باكيا،
فقد كان يرسل صرخة المنتصر البتهج وهو يحكي للناس كيف صرع
الوحش ، وبزفر باكيا بلوعة وأسى وينتف شعر لحيته عندما يتحدث
عن مصرع اخيه .

وكان كلما تذكر ذلك اليوم ، قال والدموع تظفر من عينيه :

- يا لجون .. اخي المسكين .. لو انه رأني وانا اخنق الذئب ..

اذن لايقنت انه مات هائنا راضيا » .

وقد بثت ارملة الفقيد في روع ابنها شعور الخوف والرهبة
من الصيد والقنص الذي انتقل من الاب الى الابن .. حتى انحدر
هذا الشعور الى نفسي .

وصمت المركيز لحظة ، فسأله احد المستمعين :

- « هل هذه القصة خرافة ؟ ام هي قصة حقيقية ؟! »

فاجابه المركيز قائلا :

- « اقسام لكم انها قصة حقيقية من اولها الى آخرها » .

فقالت سيدة بصوت عذب :

- « على كل حال .. انه لشيء جميل حقا ، ان تختلج النفوس

الانسانية بمثل هذه العواطف » .

ترجمة فارس قويدر

دمشق

- « ربما كان علينا ان نذهب الى ابن عمنا الاسف لبيسارك
رصاصا من رصاصاتنا ، او نطلب من احد الكهان ان يتمم ببعض
العبارات المقدسة ، فقد يساعدنا ذلك فيما جئنا من اجله » .

وساد الصمت عليهما لحظة ، استرسل جون بعدها قائلا :

- « انظر الى الشمس .. كم هي حمراء .. يلوح لي ان هذا

الذئب سيحدث هذه الليلة كارثة البمة » .

وما كاد جون ينطق بهذه الكلمات حتى أجفل جواده ، وهرج

- في نفس الوقت - جواد اخيه ، وفجأة ففز امامهم من مكمن
من بين الاحراش المفظة باوراق الاشجار الصفراء اليابسة وحش
ضخم ذو لون رمادي قريب من الابيض . ثم فر هاربا حتى فساب
في احشاء الغابة .

فاطلق الاخوان صيحة الامل والفرح ، وانحنيا على ظهر جواديهما

يدفعا دفعا قويا ، ويستحاثنهما اسراعا . وهما يتخسانهما
بالهماز ، حتى بدا الجوادان وهما يحملان الفارسين القويين وكانهما
هيكلان بين ركبتيهما ، يهمان ان يطرا بهما في الفضاء .

واندفا في مطاردة هذا الوحش الهارب وهما يسلكان الاودية

الصيقة تارة ، ويتسلقان المرتفعات الوعرة تارة اخرى وهما يطلقان
نفر الصيد لينبها الجيرة وكلاب الصيد على اللحاق بهما ، واذ بجبهة
جد جدي تصطدم بفصن شجرة ضخمة فيشق رأسه وتتهشم جمجمته ،
ويهوي الى الارض صريعا . وعدا جواده حتى غاب في خلال
الظلام المهيمن على الغابة .

فاوقف فرانسيس جواده ، ثم ترجل عنه ، وامسك اخاه

بين ذراعيه فوجد ان مخه يسيل ممتزجا مع الدم المتدفق من الجرح
الذي انفتح في دماغه . ثم جلس بالقرب من جثته ووسد رأسه
المشوه بين ركبتيه ، وراح يتطلع بلهفة وأسى الى الوجه الشاحب
وقد فقد رونق الحياة .

واشدت تكاثف الظلمة ، وقرقعت تحت وطأة البرد القارس

افصان الاشجار ، فنهض فرانسيس مرتجفا لا يستطيع ان يلبث في
مكانه اكثر مما بقي ، وقد شعر انه يكاد يستسلم للاغماء ، فلم يعد
يسمع شيئا من نباح الكلاب وابواق الصيد ، فقد سكن كل شيء
من حوله ، وغاب في طيات الافق غير المنظور .

كان في هذا السكون الحزين الذي هيمن على الغابة في تلك

الليلة الباردة والحالكة ، ما يملا النفس خوفا وفزعا . فامسك
فرانسيس بساعديه القويتين جثة اخيه جون والقاه على سرج جواده
ليحملها معه الى القصر . ثم امتطى جواده وعاد متمهلا الى البلدة ،
وبلته من الهم والغم الشيء الكثير . اذ تمثلت لناظره صور
رهيبة مفزعة ، وكانما سكنته روح شريرة .

وبينما كان غارقا وسط مخاوفه اذ بشبح كبير يمر من امامه ،

لقد كان الذئب ، فسيطرت عليه رجفة رعب عنيفة ، وأحس بشيء
كقطرة من المياه الباردة تنزل على ظهره . فرسم شارة الصليب
وكانه فس تلبسته الشياطين .

لكن مرأى الجثة الهامدة امام عينيه جعلت شعوره يتقلب من

الخوف الى الغضب ، وثار في نفسه نغمة ملتهبة ، فامسك بعنسان
جواده ، وراح يطارد الذئب ويتعقبه في احشاء الغابة وعبر الخنادق
والاودية الصيقة ، فرأى غابات لم يرها قط . وعيناه مثبتتان على
الوحش الذي كان كنقطة بيضاء تلمع في سواد الظلام ، وقد ارخى